رسالة للشيخ أبي بصير – حفظه الله

من الشيخ أبي محمد المقدسي

لم يكن في النية نشر هذه الرسالة؛ فقد كانت رسالة خاصة إلى الأخ أبي بصير، ثم إني اطلعت على رد لأبي بصير في موقعه على مقتطفات منها ضمن تعليقات له على رسالة (هذه عقيدتنا) .. ولذلك لزم نشرها كاملة

* * *

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

الأخ الفاضل ... / أبو بصير حفظه الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أسأل الله تعالى أن تصلك رسالتي وأنت في أحسن حال في دينك ودنياك ..

وأسأله تعالى أن يجعلنا وإياك من أنصار دينه ويثبتنا على ذلك إلى أن نلقاه ..

وبعد .. فلقد اطلعت على رسالتك في الرد علي في موضوع العذر بالجهل والتي سميتها (**كبوة فارس**).. ولي عليها ملحوظات ، ليس هذا محل بسطها .. وإنما يهمني هنا أن أنوه بمجانبتك للصواب في فهمك لكلامي وتلخيصه الذي نسبته إلي ومن ثم لم يكن ردك في محله في بعض الأمور..

فأنت غفر الله لي ولك ، تعجلت في الرد برسالتك ، دون أن تطلع على كلامي المفصل في هذا الباب ، وإنما التقطت أطرافا من كلامي المتعلق بهذا الموضوع من بعض رسائلي غير المخصصة لذلك ، ولم تستطع أن تجمع بينها ، بأن تفهم المجمل على ضوء المفصل منها ، بل عمدت إلى كلامي المفصل البين في بعضها ، فجعلته علامة على اضطراب مذهبي في هذا الباب كما في آخر رسالتك ، وفهمت أطراف كلامي ولخصته في أولها تلخيصا خاطئا ، فقولتني بذلك ما لم أقله ، وألزمتني بإلزامات لا ألتزمها ..

فقد قلت في فاتحة رسالتك ملخصا لمذهبي كما فهمته : (فقد اطلعت على كلام لأخينا الشيخ أبي محمد المقدسي ـ حفظه الله وفك أسره ـ مفاده أنه لا يعذر من يقع في الشرك المنافي للتوحيد بالجهل أو بأي مانع آخر ــ سوى الإكراه ـ ويرى أن أي امرئ يقع في الكفر أو الشرك هو كافر بعينه، وهو من أهل العذاب والنار يوم القيامة، وإن لم تبلغه الحجة من جهة نذارة الرسل فيما قد خالف فيه؛ لأنه محجوج من جهة حجة الآيات الكونية الدالة على الخالق عز وجل، وحجة الفطرة، وحجة الميثاق الذي أخذه الله من ذرية آدم ـ يوم أن خلقه ـ وأشهدهم على نفسه عز وجل بالوحدانية ..!) أهـ ص 1

فأنا لم أقل مثل هذا الكلام ، ولا أدري كيف فهمته ونقولاتك التي التقطها من كتبي لا تسعفك على هذا الفهم بل أكثرها يرده ..

أما قولك : (أنني لا أعذر من يقع في الشرك المنافي للتوحيد بالجهل أو بأي مانع آخر ــ سوى الإكراه ــ و أن أي امريء يقع في الكفر أو الشرك هو كافر بعينه)

** فإطلاق غير سديد لم أقل به ، وقد ذكرت في كثير من كتبي أننا لا نكفر المعين ، إلا بعد النظر في الشروط والموانع ، وأن المرء قد يصدر منه الفعل أو القول المكفر ولا يكفر لقيام مانع من موانع التكفير في حقه ، وأنني أفرق بين التكفير المطلق وتكفير المعين ، ولو رجعت أخي إلى (عقيدتنا) التي كان الأولى عليك ما دمت قد تصديت لكلامي ، أن تجعلها الأصل الذي ترد إليه ما أجمل من كلامي في مواضع أخرى ؛ لقرأت قولي : (وليس من منهجنا التعجل في التكفير أو التعجل بترتيب آثاره دون تثبّت أو تبيّن، (فإن استباحة دماء المصلين الموحدين خطر عظيم والخطأ في ترك ألف كافر، أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم واحد) ونفرق في أبواب التكفير بين كفر النوع أو العمل المكفر، وبين كفر المعين، وأنه قد يصدر عن المرء كفر ولا يلزمه حكمه ولا اسمه إن اختل شرط، أو قام مانع من موانع التكفير، ونعتقد أن من دخل الإسلام بيقين فإنه لا يجوز أن يخرج منه بالشك أو التخرّص، فما ثبت بيقين لا يزول بالشك.) أهـ من (عقيدتنا) باب الكفر .

وأما قولك أنني لا أعذر من يقع في الشرك المنافي للتوحيد بالجهل أو بأي مانع آخر ــ سوى الإكراه ، فغير صحيح فانا أعذر بموانع غير الإكراه في هذا الباب وليس أشهر من إعذاري لكثير من المشاركين في الإنتخابات

البرلمانية التي أراها انتخابات شركية مناقضة للتوحيد ؛ فأنا أعذر كثيرا منهم بمانع الخطأ وانتفاء القصد ، كما هو في أكثر من موضع من كتاباتي المنشورة كالإشراقة والنكت اللوامع وغيرها ..

وكذا بقية قولك : (، وهو من أهل العذاب والنار يوم القيامة، وإن لم تبلغه الحجة من جهة نذارة الرسل فيما قد خالف فيه ؛) أهـ

فهذا لم أقله في (أي امريء يقع في الكفر) ، ولا في أي باب من أبواب الكفر كما أطلقت في عبارتك أعلاه ، وإنما قلته فيمن نقض أصل التوحيد وعبد غير الله تعالى فأشرك به شركا واضحا صراحا ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فأنا لم أقل (وإن لم تبلغه الحجة من جهة نذارة الرسل فيما قد خالف فيه ؛) أهـ . وإنما قلت : (وإن لم يأته نذير) ، كما أوردت بنفسك في نقولاتك عني ، وفرق بين هذا وبين من لم تبلغه نذارة الرسل عموما ، ولذلك فقد أكدت ذلك وبينته في أكثر من موضع بقولي : (وإن لم يأته نذير خاص) . وقد نقلت من كلامي في رسالتك أشياء من هذا البيان أنظر ص (4) حيث نقلت قولي : (وأن النصوص قد أثبتت أن هناك من يعذب في الآخرة لموته على الشرك الأكبر، وعدم تحقيقه للتوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وإن لم يأته رسول خاص، إذ أن هذا الأصل بعث به الرسل كافة، وأنزلت به الكتب كلها، واتفقت وتواترت عليه الشرائع) أهـ .

وتأمل قولي (أن هناك من لم يعذب) فليس هذا تعميم ولا إطلاق ، بل هو تبعيض ذكرت صورته بقولي (وإن لم يأته رسول خاص، إذ أن هذا الأصل بعث به الرسل كافة) .

لكنك لم تعول على ذلك ؛ بل جعلت كلامي في باب العذر بالجهل مضطربا بسبب أمثال هذا البيان .

كما أنني لم أزعم ؛ أن كل من أشرك أو كفر فإنه كافر ومعذب في الآخرة لأنه (محجوج من جهة حجة الآيات الكونية الدالة على الخالق عز وجل، وحجة الفطرة، وحجة الميثاق الذي أخذه الله من ذرية آدم ـ يوم أن خلقه ـ وأشهدهم على نفسه عز وجل بالوحدانية ..!) وحسب ، كما ذكرت في تلخيصك الذي جعلته مفاد كلامي أعلاه .

فقد قلت في عقيدتنا في باب الكفر : (ونؤمن بأن الميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق، وأنه

سبحانه خلق عباده حنفاء فاجتالتهم شياطين الجن والإنس عن دينهم، وشرعت لهم ما لم يأذن به الله، وأن المولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أوينصرانه أو يمجسانه أو يشركانه. ولذلك نعتقد أن كل من دان بغير دين الإسلام فهو كافر. سواء بلغته الرسالة أو لم تبلغه، فمن بلغته فهو كافر معاند أو كافر معرض، ومن لم تبلغه فهو كافر جاهل، فللكفر دركات، كما أن للإيمان درجات، ومع هذا فلم يكتف الله تعالى بحجة الميثاق والفطرة على عباده، فأرسل إليهم الرسل يذكرونهم بالميثاق الذي أخذه الله عليهم، وانزل عليهم كتبه وجعل آخرها كتابه المهيمن عليها (القرآن الكريم)، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحفظه من التبديل، وجعله حجة بالغة واضحة قائمة على كل من بلغه، فقال: ((وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرآنُ لأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)) [الأنعام: 19]، فدين الله في الأرض والسماء واحد)

وقد نقلت بنفسك كلاما واضحا لي حول ذلك ص (3) من رسالتك ، وهو قولي بعد أن سقت بعض الأحاديث الدالة على تعذيب من مات على الشرك قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم : (وهؤلاء من القوم الذين قال الله تعالى فيهم:] لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون [السجدة:3. وقال تعالى:] لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون [يس:6. فصح بنص الوحي أن هؤلاء قوم معذبون في الآخرة، مع أنهم ما أتاهم نذير وأنهم غافلون بنص التنزيل .. وهو دليل على أن من نقض أصل التوحيد من المكلفين ومات على الشرك الصراح والتنديد، أنه معذب في الآخرة وإن لم يأته نذير ، لأن أصل التوحيد مما استقر في فطر الخلق وقامت عليه حجج الله المختلفة ويُعث رسل الله جميعاً له، وأنزلت كتب الله كلها من أجله) أهـ

فتأمل وضوح عبارتي وقولي : (وإن لم يأته نذير) ، لا (وإن لم تبلغه الحجة من جهة نذارة الرسل فيما قد خالف فيه) كما قلت في تلخيصك وفهمك لكلامي في فاتحة رسالتك . ثم تأمل تعليلي في خاتمة عبارتي : (لأن أصل التوحيد مما استقر في فطر الخلق وقامت عليه حجج الله المختلفة ويُعث رسل الله جميعاً له، وأنزلت كتب الله كلها من أجله) أهـ

وتأمل عدم اكتفائي بحجة الفطرة وحدها ، وذكري لاتفاق الرسل كافة والكتب جميعها على هذا الأصل ، ولذلك لم أعذر الجاهل فيه ، دلالة على أنني لا أهمل الحجة الرسالية ، وإنما مرادي التنبيه دوما إلى أن داء أكثر الخلق في زماننا

هو الإعراض عن النذارة ، لا عدم بلوغها .. وكل ذلك في سياق الرد على المجادلين عن عساكر الشرك والقوانين الذين يعتذرون لهم بالجهل ، ويطلبون منا إقامة الحجة على أحادهم قبل تكفيرهم ..

ومع هذا فلم تلتفت غفر الله لي ولك إلى ذكري للرسل والكتب هاهنا أيضا ، ولم تستسغه ، بل اعتبرته كلاما مقحما لا داعي لذكره كما ذكرت في المتن وفي الهوامش ص (3) و ص(5) .

ومثل ذلك ما نقلته في رسالتك عني حيث قلت ص (5) :

(وقال في رسالته " كشف الشبهات " : وذلك لأن الشرك الأكبر المناقض للحنيفية السمحة وهو صرف شيء من العبادة الظاهرة لغير الله سبحانه وتعالى أمر لا يُعذر فاعله بالجهل أصلاً فقد أقام الله سبحانه وتعالى عليه حجته البالغة من أبواب شتى .. قال : " ثم ذكر منها الأدلة الكونية الظاهرة .. وحجة الميثاق الذي أخذه عز وجل على بني آدم .. وحجة الفطرة .. ثم أضاف إليها حجة نذارة الرسل والكتب!! .. ولا ينبغي إقحامها في هذا الموضع "..) .أهـ فتأمل !!!

ومثله كذلك م ا نقلته عني أيضا في هامش ص (21) حيث قلت : (في رسالة لأخينا أبي محمد يجيب فيها على سائل .. وذلك في أواخر شهر شوال من سنة 1416 هـ، كما هو مثبت في الرسالة، يقول: الشرك بالله وعبادة غيره، واتباع دين وشرع غير دينه وشرعه، أو الطاعة في التحليل والتحريم والتشريع .. ونحو ذلك فهذا كله لا يعذر الجاهل به لأنه أصل الدين (التوحيد) الذي جاءت الرسل كافة من أجل دعوة الناس إليه وتقريره والتحذير من ضده (الشرك) وسد ذرائعه، وقد أقام الله تعالى فيه حجته من أبواب شتى) أهـ ... فتأمل !!

ومثله أيضا ما نقلته عني ص (32) :

(قال في رسالته كشف الشبهات:" فمن بلغه هذا القرآن العظيم فقد قامت عليه الحجة والنذارة ، خصوصا في أوضح أبواب الدين الذي بعث كافة الرسل من أجله ") أهـ .

فتأمل وضوح كلامي في إناطة قيام الحجة ببلوغ القرآن ، خصوصا في أوضح أبواب الدين الذي بعث كافة الرسل

من أجله ، ومع هذا لم تقنع به ، بل جعلته علامة على اضطراب كلامي .

وكذا ما نقلته عني في الرسالة نفسها:" وباب الشرك الأكبر الصريح قد أقام الله عليه حججه البالغة فلا يُعذر الجاهل فيه لأن جهله والحالة كذلك إنما يكون إعراضاً عن الدين وعن تعلم أهم ما خلق من أجله وليس جهل من لم تقم عليه الحجة " أهـ .

ثم قلت : (يفيد كلامه أن الجاهل لا يعذر بالجهل، لا لأنه لم تقم عليه الحجة الرسالية، وليس لكونه محجوج من جهة حجة الميثاق والفطرة .. بل لأنه يعرض عن الحجة الرسالية وعن تعلمها التي بها قامت الحجة وحُسمت الأعذار ..!) قلت : وهو عين قولي ، فالعجب كيف تصر على مواصلة رمي كلامي بالاضطراب فتقول بعده : (ومثل هذا الكلام لا مبرر لذكره ـ سوى الاضطراب ــ عند الحديث عن عدم العذر بالجهل في التوحيد .. لأن العباد ــ كما يقول ـ محجوجون من جهة حجة الفطرة والميثاق .. فعلام

اللجوء إلى الحديث عن حجة الرسل، وحجة الدين وتعلمه ؟!!) أهـ

و هذا ليس هو ما أقول بل هو ما قولتني إياه غفر الله لك ، فأنا أذكر دوما نذارة الرسل ضمن الحجج المتنوعة التي أقامها الله على عباده ..

وأخيرا هاك موضعا متكاملا من كلامي في هذا الموضوع ، قد نقلت أنت أوله كما تقدم ، ونتفا متفرقة منه ، وأشرت إلى سائره إشارة عابرة دون أن تعول عليه أوتعتبره بيانا ، بل هو أيضا مما استدللت به على اضطراب كلامي في هذا الباب ،، تأمله متكاملا ، وستجد أنك قد ظلمني وقصرت حين بترته ولم توردة كاملا ...

وهو قولي في كشف شبهات المجادلين : (وذلك لأنّ الشرك الأكبر المناقض للحنيفية السمحة وهو صرف شيء من العبادة الظاهرة لغير الله عزّ وجلّ أمر لا يُعذر فاعله بالجهل أصلاً فقد أقام الله عزّ وجلّ عليه حجته البالغة من أبواب شتى ذكر العلماء منها:

1- الأدلّة الكونية الظاهرة الدالة على وحدانية الله، حيث يستدل بربوبيته على وحدانيته سبحانه فالذي خلق ورزق وصوّر ودبّر هو وحده الذي يجب أن يُعبد ويشرّع ولا يجوز

شرعاً وعقلاً أن يُصرف شيء من ذلك لغيره سبحانه {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}.

2- ومنها أخذه سبحانه الميثاق على بني آدم في ذلك حيث استخرجهم من ظهر أبيهم آدم كالذر قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}. فلم يعذرهم الله تعالى بدعوى الغفلة والجهل وتقليد الآباء في الشرك الظاهر المستبين ، بعد أن أخذ ميثاقهم على أن لا يتخذوا رباً سواه.

3- ومنها فطرة الله التي فطر الناس عليها وغرسها في قلوب العباد على أنّ الخالق الرّازق هو وحده المعبود المشرِّع كما في الحديث الذي يرويه الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه" وفي رواية (ويشركانه) وهي في صحيح مسلم وفي الحديث القدسي الذي يرويه مسلم أيضاً "إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم فحرّمت عليهم ما أحللت لهم".

4- وإضافة إلى ذلك أرسل سبحانه الرسل جميعهم من أجل هذه الغاية العظيمة {* وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الْطَّاغُوتَ} ، {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} فمن لم تصله رسالة نبي سمع بغيره.

إذ جميعهم وإن تنوّعت شرائعهم إلاّ أنّ دعوتهم إلى تحقيق التوحيد وهدم الشرك والتنديد واحدة.

وقد قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) وقد صدق الله وحده فبعث للناس كافة رسله ، وختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم أوضح به المحجة وأقام به الحجة ، وليس بعده ثم رسول.

5- وأنزل سبحانه الكتب جميعها تدعوا إلى هذه الغاية العظيمة وختمها بكتاب لا يغسله الماء لا يبلى ولا يبيد فتكفّل بحفظه إلى يوم القيامة وعلّق النذارة ببلوغه في كثير من أبواب الدين.

فكيف بأعظم وأهم وأخطر باب من تلكم الأبواب (التوحيد) قال تعالى {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} وقال تعالى {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} .

ثم عرّف البيِّنة والحجّة سبحانه بقوله {رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً } .

فمن بلغه هذا القرآن العظيم فقد قامت عليه الحجّة والنذارة ، خصوصاً في أوضح أبواب الدين الذي بعث كافة الرسل من أجله.

أمّا أن يُراد بالحجة وقيامها أن يؤتى الى كل واحد في مكانه فتقام عليه الحجة فهو ما أنكره الله تعالى في قوله تعالى عن المشركين {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُّنَشَّرَةً } .

ومعلوم من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أن شأنه في دعوة الطوائف الممتنعة، أنه كان يراسل رؤوس تلك الطوائف دون آحاد رعيتهم ، ولم يكن يشترط أو يأمر رسله وأمراءه بوجوب تتبع آحاد الناس لإقامة الحجة عليهم ، خصوصاً في المحاربين .وأن الحال عند العلماء بعد انتشار الإسلام وفشُوّه في أرجاء المعمورة ليس كالحال في فجر الدعوة وأول الإسلام أو مع حديث العهد بالإسلام.

وهؤلاء الطواغيت وأنصارهم من عساكر القانون يقتفون آثار من قبلهم من المشركين في الإعراض عن القرآن المتضمن للتوحيد وإهماله وينفرون من سماع الحق كنفور وفرار الحمر الوحشية من الأسد، فهم مشركون جهال بجهل اكتسبوه بإعراضهم عن التذكرة المحفوظة والحجة القائمة بين أيديهم ..

لا لجهل سببه عدم بلوغ الرسالة ، أو لجهل سببه العته أو الجنون أو الصغر أو نحو ذلك من موانع الأهلية ..أضف إلى ذلك أنهم محاربون ممتنعون عن شرائع الإسلام بشوكة ، ومعلوم أن المحارب لا تجب إقامة الحجة عليه ...ولذلك فرق العلماء في هذا الباب بين من كان قتاله قتال دفع وبين من كان قتاله قتال طلب،ثم يأتي أولئك المجادلون عن هؤلاء المحاربين لدين الله وأوليائه ليرقّعوا باطلهم, فيزعمون أنّ الحجّة غير مقامة عليهم, ولازم هذا -مع مافيه من جهل- مناقض ومعارض لقوله تعالى {قُلْ فَلِلَّهِ

الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} وقد علمتَ أنها مقامة في أصل التوحيد من وجوه وأبواب شتى.

ولذلك فقد قال النبي صلى الله عليه وسلّم لرجل سأله عن أبيه: "إن أبي وأباك في النار" رواه مسلم مع أنّهم من القوم الذين قال الله فيهم {لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} .

وما ذلك إلاّ لأنّ أصل التوحيد والتحذير من الشرك الأكبر وعبادة غير الله تعالى، قد أقام الله عليها الحجة البالغة كما تقدّم من أبواب شتى وأرسل بها الرسل أجمعين .

ومع هذا يأتي بعض من لا يعرفون من الدين إلاّ الاسم ولا من معالمه إلاّ الرسم يطالبون بإقامة الحجة في باب الشرك الواضح المستبين والتوحيد الذي هو أحق حقوق الله على العبيد ، والذي بُعِث من أجله جميع الرسل وأنزلت له كافة الكتب وتواترت عليه الحجج .

وربما أقاموا على ذلك شبهاً بآيات يضعونها في غير موضعها كقوله تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} يريدون: أنّه لا تكفير إلاّ بعد إقامة الحجّة في كل باب حتى في الشرك الأكبر الواضح المستبين.

وليس في هذه الآية وجه دلالة على قولهم الفاسد هذا فالله جلّ ذكره لم يقل "وما كنّا مكفرين حتى نبعث رسولاً"! .

وإنّما قال {معذّبين} والمقصود بذلك عذاب الإستئصال الدنيوي وهي كقوله تعالى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} , أو العذاب الأخروي كما قال تعالى {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَى} .

أمّا التكفير خصوصاً في الشرك الأكبر وعبادة غير الله فليس هو المراد بذلك، إذ الكافر إمّا أن يكون كافراً معانداً كالمغضوب عليهم عرفوا الحق وكفروا به، أو يكون كافرا جاهلاً معرضاً أو مضلّلاً كالضالين الذي لبّس عليهم علماؤهم.

وليس كل كافر يكون كفره عن علم وجحود للحق بل أكثر الكفار جُهّال ضلاّل وإنما أوردهم النار كفرهم بتقليد ساداتهم وكبرائهم وآبائهم ويحسبون أنّهم يُحسنون صنعاً.

وباب الشرك الأكبر الصريح قد أقام الله عليه حججه البالغة فلا يُعذر الجاهل فيه لأنّ جهله والحالة كذلك إنما يكون إعراضاً عن الدين وعن تعلم أهم ما خلق من أجله وليس جهل من لم تقم عليه الحجّة .

وفي قصة زيد بن عمرو بن نُفيل عبرة فقد حقّق التوحيد دون أن يبعث رسولٌ خاص بزمانه وذلك قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلّم مباشرة فقد كان من القوم الذين قال الله تعالى فيهم {لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ} ومع ذلك فقد كان زيد حنيفاً على ملّة سيدنا إبراهيم اهتدى إلى التوحيد بفطرته فكان يبرأ من طواغيت قومه ويجتنب عبادتها ونصرتها، وكان ذلك كافياً لنجاته، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه يبعث أمة وحده، ورآه صلى الله عليه وسلم ، وقد قُدِّمت له سُفرة "مذبوحة على نصبهم" فأبى أن يأكلها وقال: (إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم) وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول :(الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض ثم أنتم تذبحونها على غير اسم الله ، إنكاراً لذلك وإعظاماً له) رواه البخاري. .

فتأمّل كيف أنّ التوحيد مزروع في الفطرة وأنّ الشرك هو الطارئ الذي اخترعه الناس وانحرفوا إليه .

فهذا رجل لم يأته نبي خاص بزمانه، ومع هذا عرف التوحيد وحقّقه فنجا وعُذر بتفاصيل الشريعة والعبادات التي لا تُعرف إلاّ عن طريق الحجّة الرسالية فقد كان يقول كما في رواية ابن إسحاق: " اللهم لو أعلم أحب الوجوه إليك لعبدتك به ، ولكني لا أعلمه ، ثم يسجد على الأرض براحته ".

فعُذر بترك الصلاة والصيام ونحوه من الشرائع التي لا تُعرف إلاّ عن طريق الرسل .

بينما لم يُعذر أهل زمانه ومنهم والديّ النبي صلى الله عليه وسلّم لأنّهم لم يحقّقوا التوحيد ويبرأوا من الشرك والكفر والتنديد مع أنّهم لم يأتهم نذير كما أخبر تعالى.

فتدبّر هذا المعنى جيداً واعلم أنّ هذا الباب (باب العذر بالجهل) قد تكلّم فيه العلماء وخاض فيه المتأخرون ولا يفهمه حق الفهم إلاّ من أحاط به من جوانبه أمّا من أخذ منه بنص واحد وبنى عليه المسائل الكبار فقد جانب الصواب وأبعد النجعة.

واعلم بعد هذا كله أنّ كفر هؤلاء الطواغيت وأنصارهم اليوم ليس هو من الجهل بمعنى عدم بلوغ الحجّة الرسالية فقد بُعِث خاتم الرسل وليس بعده ثَم رسول, وكتاب الله الذي عُلِّقت به النذارة محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو بين أيديهم ولكن أكثر الناس استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فهم معرضون عن طلب الحق وعن اتباعه فكفرهم كفر إعراض وليس بسبب عدم بلوغ الحجّة الرسالية .

ثم اعلم أن الذين {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ} كانوا يجهلون أنّ الطاعة في التشريع عبادة وشرك كما في حديث عَدي بن حاتم الصحيح بمجموع طرقه وفيه قوله "ما عبدوهم" فما كانوا يعرفون أن الطاعة في التحليل والتحريم والتشريع عبادة ومع هذا كفروا بصرف ذلك لغير الله وصاروا به متخذين أرباباً من دون الله ولم يُعذروا بهذا الجهل.

لأنّ الأمر منافٍ للفطرة التي فطر الله الناس عليها, فالذي خلق ورزق وصوّر وبرأ هو الذي لا يجوز أن يشرِّع ويأمر ويحكم أحد سواه ، وقد بعث الله كافة رسله وأنزل جميع كتبه لأجل توحيد الله بالعبادة وإفراده بالحكم والتشريع واجتناب عبادة من سواه ، ثم الأمر بعد ذلك في زماننا أوضح من ذلك فهذا الضابط أو ذلك الشرطي وذلك المخابرات أو الأمن الوقائي، إذا ما سألته عن دينه زعم أنّه الإسلام وأنّ كتابه القرآن، وأنه يتلوه آناء الليل وأطراف النهار زيادة في إقامة الحجة!! ثم هو مع ذلك يخذل الإسلام والقرآن ويحاكم ويسجن ويتجسّس على من يسعى لتحكيمه ونصرته ويحارب كل من يدعوا إلى التوحيد والبراءة من الشرك والتنديد وينصر في المقابل شرع الطاغوت وقانونه الوضعي ودستوره الشركي الذي ألغى أحكام الشرع ويظاهر أولياءه من أعداء التوحيد ويتولاهم ويُعينهم على أهل الحق .

فهل مناقضة هذا لدين الله تخفى على من زعم الإسلام ؟ وهل هي من الغامضات والمشكلات الملتبسات حتى يقال "لم تقم عليهم الحجّة"؟.

إنّ الأمر والله أوضح من الشمس في رابعة النهار.

فها هنا صفّان وفريقان يختصمون: صف شرك وصف توحيد صف القانون الوضعي وصف الشريعة المطهّرة وهؤلاء القوم يختارون بمحض إرادتهم وبكامل عقلهم واختيارهم صف الطاغوت إمّا حبّاً له أو استحباباً للحياة

الدنيا "الراتب والتقاعد" ونحوه على الآخرة يقاتلون في سبيله وينصرونه ويحاربون من ناواه أو اجتنبه من أهل صف التوحيد {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ}.

ولذلك سيقول هؤلاء الجند يوم القيامة عندما يعاينون فوز أهل التوحيد وهزيمة وهلاك أهل الشرك والتنديد {رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنا كَبِيرا } .

فتأمل قولهم {فأضلّونا السبيلا} هل عُذروا به؟! .

وقال عن كثير من الكفار بأنّهم كانوا {يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً} {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} و{وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ} وكل ذلك لم ينفعهم لأنّهم نقضوا أمراً بيناً ظاهراً أقام الله عليه حجّته البالغة وأرسل من أجله جميع رسله ولو كان خطأهم وانحرافهم حصل في أمر غامض ملتبس وكان عندهم أصل الإسلام لكان حالهم فيه على غير هذا .

والكلام في هذا الباب يطول وقد فصّل فيه أهل العلم ولنا فيه مُصنّف سمّيناه (الفرق المبين بين العذر بالجهل والإعراض عن الدين) يسّر الله طبعه أهـ . من كشف شبهات المجادلين .

وإليك شيئا مما قلته في النكت اللوامع :-

(ثم تكلم المصنف في الحجة الرسالية وذكر الأدلة على أن الرسل بعثوا بالتوحيد وغيره. ولا أحد يخالف أن الله سبحانه قد جعل من حججه على عباده في التوحيد وغيره الحجة الرسالية، لتكون له سبحانه الحجة البالغة.

وفي الحديث: "... لا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين" أخرجه البخاري ومسلم عن ابن مسعود مرفوعاً..

ولكن الخلاف هل يعذر المشرك الناقض لأصل التوحيد إذا لم يبعث إليه رسول؟ وإذا عذر فما معنى العذر؟ هل معناه أنه لا يعذب حتى يختبر في عرصات القيامة أم أن معناه أنه معذور ويدخل الجنة..؟؟

فقد صح عن النبي أنه قال: "إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة" وقال عن بعض من لم يأتهم نذير: "إن أبي وأباك في النار ") أهـ .

ومما قلته في حسن الرفاقة : (وأما العذر بالجهل : فليس صحيحاً أنه لا عذر بالجهل مطلقاً بل في المسألة تفصيل معروف عند العلماء فرقوا فيها بين حديث العهد بالإسلام وغيره .. وبين أصل الدين والمعلوم بالدين بالضرورة وغير ذلك بل هناك في فروع الفقه أمور لا يعذر الجاهل بها وأمور أخرى يعذر بها ..

فالقول بأنه يعذر بالجهل مطلقاً أو لا يعذر بالجهل مطلقاً كلاهما مجازفة ، والصواب التفصيل .. ويهمنا هنا من ذلك كله : الشرك بالله وعبادة غيره واتباع دين وشرع غير دينه وشرعه أو الطاعة في التحليل والتحريم والتشريع .. ونحو ذلك فهذا كله لا يعذر الجاهل به لأنه من أصل الدين (التوحيد) الذي جاءت الرسل كافة من أجل دعوة الناس إليه وتقريره والتحذير من ضده (الشرك) وسد ذرائعه وقد أقام الله تعالى فيه حجته البالغة من أبواب شتى ..

الأدلة الكونية الظاهرة على وحدانيته .. إذ يستدل بربوبيته سبحانه على وحدانيته فالذي خلق وصور ودبر هو وحده الذي يجب أن يعبد ويشرع ، ولا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يصرف شيء من العبادة لغيره { ألا له الخلق والأمر } .

قد أخذ سبحانه الميثاق على بني آدم في ذلك حين استخرجهم من ظهر أبيهم آدم كالذر، قال تعالى { وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون } والأحاديث في هذا المعنى صريحة صحيحة .

وقد فطر الله الناس على التوحيد وغرس ذلك في قلوبهم كما في الحديث : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه ..) [1] فالخلق جميعاً مستقر في نفوسهم أن الخالق الرازق وحده المعبود المشرع . وفي الحديث القدسي : (إني

---

[1] رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، حديث رقم : 1293. وفي رواية لمسلم زاد أو (يشركانه) .

خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم فحرمت عليهم ما أحللت لهم ..)

ومع ذلك كله .. فقد أرسل الله سبحانه مئات الرسل جميعهم يدعون إلى هذا الأصل العظيم ويحذرون من ضده قال تعالى : { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت } وقال سبحانه : { رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل }.

وأنزل سبحانه الكتب جميعاً ؛ تدعوا إلى هذا الأصل العظيم وتوضحه وتحذر من الشرك وختمها بكتاب لا يبلى ولا يبيد ، وتكفل سبحانه بحفظه وعلق النذارة به وببلوغه .. فقال تعالى { وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ } وقال سبحانه وتعالى : { لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة } ثم عرف البينة والحجة بقوله تعالى : { رسولاً من الله يتلو صحفاً مطهرة }

فمن بلغه هذا القرآن فقد قامت عليه الحجة والنذارة خصوصاً في أعظم وأشهر أبواب الدين (التوحيد) .. وعبادة غير الله تعالى .. التي امتلأ القرآن تحذيراً منها..

وليس إقامة الحجة أن يؤتى إلى كل إنسان في بيته ومحله فيناقش ويكلم ويفصل له .. نعم هذا جميل وهو أحسن القول إذ هو الدعوة التي ورثها الأنبياء لأتباعهم : { ومن احسن قولاً ممن دعا إلى الله} .. لكن لا يقال إن الحجة قبل ذلك – ومع ما تقدم كله- غير مقامة خصوصاً في أعظم أبوب الدين .. وانها لا تقام إلا بهذه الطريقة .. فهذا ما انكره الله تعالى على المشركين حين قال : { فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة }

... إلى أن قلت : وعلى كل حال فالتفصيل في هذا الباب مهم .. ويجب ان يعرف الأخ الموحد أن داء أكثر الناس اليوم ليس هو الجهل الذي يعذر صاحبه بسبب عدم بلوغ الحجة .. فالقرآن محفوظ .. والسنة موجودة ، ومظنة العلم متوافرة .. لكنه داء الإعراض فتجد الواحد منهم عالم في أمور الدنيا صغيرها وكبيرها خفيها وجليها ، جاهل بأهم مهمات الآخرة ، معرض عن تعلم أهم أصول الدين ، ثم يرقع لهم المرقعون يقولون : هل أقمتم عليهم الحجة ..؟؟؟.

وقد قال تعالى : { ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا } ..

وهذا كله من عقوبات الإعراض .. فكتاب الله قد بلغ هؤلاء القوم ، وهم يسمعونه ليل نهار ، ولكنهم يعرضون عن تعلم أهم المهمات فيه ..

ثم يقال هم معذورين بجهلهم !! .)

والخلاصة التي أريد أن تعرفها من مذهبي في هذا الباب:

1 – أنني لا ألغي مانع الجهل من موانع التكفير .

2 – بل أعتبره ، ولكن أفصل فيه ، فأفرق بين من كان حديث عهد بالإسلام وبين غيره ، وبين من نشأ في بادية بعيدة ، أو لم يتمكن من العلم ، وبين المعرض الذي عاش دهره كله في مظنة العلم ، ولم يكلف نفسه تعلم أهم مهمات الدين أو يرفع بذلك رأسا .

3 – وأعتقد أن الله قد أقام الحجة البالغة على عباده في أصل التوحيد ؛ من وجوه شتى من ذلك دعوة الرسل الذين ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، نذيرا للناس كافة ، وأن الإنذار عن الشرك الصراح حاصل ببلوغ القرآن ، الذي تكفل الله بحفظه إلى قيام الساعة .

4 – ولذلك أرى أن داء أكثر الخلق في زماننا والذي أردى أكثرهم في الشرك ، ليس هو الجهل بسبب عدم بلوغ الحجة أو عدم التمكن من العلم ، وإنما هو الإعراض عن دين الله بترك تعلمه ، وترك العمل به .

5 – وأعتقد أن من لم يدن بدين الإسلام ؛ فهو كافر ، ولا يمنع من تكفيره كونه جاهلا .

6 – وأن من عبد غير الله وأشرك بالله شركا أكبر صراحا فهو كافر وإن لم تبلغه نذارة الرسل ، لأن الله تعالى فطر عباده على التوحيد وخلقهم حنفاء وأقام حججه البالغة في هذا الباب فأبى أكثر الخلق إلا الإشراك ، ولايلزم من تكفيره ، كونه من أهل العذاب يوم القيامة ، إلا أن يكون ممن بلغته نذارة الرسل ، ولا يلزم لذلك أن يأتيه نذير خاص ، لأن دعوة الرسل أجمعين كانت إلى التوحيد والبراءة من الشرك والتنديد .

7 – والكلام في موضوع التعذيب علمي بحت ، ولا ثمـرة عملية واقعية من ورائه في أحكام الـدنيا ولـذلك فلا نشـغل أنفسنا فيه كثيراً ، أما الكلام في التكفير فهو المهم ، لتعلق كثير من أحكام الدنيا به ، وأصل كلامنـا فـي هـذا الموضـوع فـي أكـثر كتاباتنـا كـان لبيـان أن الطـواغيت وأنصـارهم المحاربين لشرع الله المناصرين لشـرائع الكفـر ، كفـار ولا تجب إقامة الحجة على آحادهم قبل تكفيرهم أو قتالهم .

هذه أخي الفاضل .. خلاصة قولنـا فـي هـذا البـاب ، ومـا كان مبهماً أو مجملاً أو مشكلا مـن كلامنـا فـي موضـع آخـر فهذا بيانه ، إلى حين طباعة رسالتنا الخاصة في الفرق بيـن العذر بالجهل والإعراض عن الدين ، أحببت أن أطلعك عليه خصوصا وأنني كنت قد سئلت عن العذر بالجهل ورأيي فـي رسالتك كبوة فارس فأجبت بنحو هذا الذي ذكرته لك هاهنـا ، أسأل الله تعالى أن يهدينا لما اختلف فيه من الحـق بـإذنه إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

والسلام

أخوك/ أبو محمد

www.tawhed.ws
www.almaqdese.net
www.alsunnah.info
www.abu-qatada.com